الفصل الخامس

النقد الأسطورى

يتحقق النقد الأسطورى للأدب حين يتجه الناقد أو الباحث نحو دراسة العلاقة بين اللاشعور الجمعى وتصورات الجنس البشرى البدائية والأثر الأدبى. أو بالأحرى يتجه نحو الكشف عن أساطير الجنس البشرى التى تكمن وراء الأدب. والظاهر أن هذا هو الاتجاه الذى سارت فيه كل جهود فور بوكين عن "نماذج نمطية الأصل فى الشعر" سنة ١٩٣٤. وفرانسيس فيرجسون "فكرة مسرح "سنة ١٩٤٩، ونرسروب فراى "التماثل المزج" ١٩٤٧، وفيليب هولرية "النافورة المحترقة " ١٩٥٤، ورولان بارت "الأساطير" ١٩٥٧. هذه الجهود وغيرها كانت تنشد تحقيق نظرية عامة للأدب الأسطورى.

ويمكن أن نلاحظ بسهولة أن هذا الاتجاه النقدى قد تطور انطلاقا من الانثروبولوجية الثقافية من جهة، وجملة المفاهيم التى أرساها يونج فى اللا شعور الجمعى وعلاقته بالتطورات البدائية للجنس البشرى من جهة أخرى. فهو يرى أن منبع الإبداع الفنى بصفة عامة يرجع أساسا إلى ما أسماه باللاشعور الجمعى، انتقل بالوراثة إلى الأشخاص حاملا خبرات الأسلاف. ومظاهر ذلك الشعور تبدو واضحة فى الأحلام وفى الأساطير، فتطور التاريخ الثقافى البشرى يبدو حاضر فى اللاشعور الجمعى، يخرج منه نموذج بدائى يطلق عليه رمزا جديدا من الناحية الشكلية لكنه قديم فى مضمونه قدم الآثار المتخلفة فى النفس البشرية، عن الأسلاف الغابرين.

ويعنى يونج باللاشعور الجمعى، جماع تجارب الإنسانية التى انحدرت إلى النفس الإنسانية عن طريق الأسلاف البدائيين عبر نفوس الأجداد، والآباء. وهذا يعنى أن مضمون اللا شعور الجمعى يتضمن أساسا عناصر من رواسب باقية فى النفس الإنسانية ترجع إلى آلاف السنين يطلق عليها اسم "النماذج البدائية" تظهر فى الأحلام بصورة عارية من التغير، وتظهر فى الأساطير وقد جرى عليها بعض التغيير نظرا لأنها قد ارتفعت إلى مستوى التصور الإنسانى، والسبب الأول فى وجود هذه "النماذج" داخل النفس البشرية هو مشاهدة الأجداد والآباء الأحداث لا باعتبارها موضوعا مستقلا عن ذواتهم بل كانت تقوم وراء هذه المشاهدة عملية نفسية معينة، تتلخص فى محاولة التوحيد بين الذات والموضوع، فمثلا عندما كانوا يشاهدون غروب الشمس وشروقها كانت تجرى فى نفوسهم عملية تستند إلى نوع من التوحيد بين الذات والموضوع.

وينتهى هذا التوحيد ببروز شئ هائل عجيب لا تلبث النفس البشرية أن تسقطه فى الخارج فى هيئة الآله أو ما شابه ذلك. وهكذا كان ظهور الأساطير، تعبيرا عن مجريات الأمور فى أعماق النفس البشرية فى مقابل أحداث الطبيعة الخارجية. وقد تركت هذه الأحداث النفسية آثارا عميقة فى عالم النفس الإنسانية، وانتقلت هذه الآثار إليها مجتمعة فيما يطلق عليه يونج "اللاشعور الجمعى"، وهذه الآثار تظهر فى صورة رمز من الرموز، يقوم الكاتب ببناءه عن طريق عملية الأسقاط نتيجة إطلاعه بحدسه على "اللا شعور الجمعى". وهذا يعنى أن الرمز ليس من أصل لا شعورى بحت، ويعلل يونج ذلك بقوله "لأن أصل اللاشعور، يمثل فى الواقع النماذج البدائية التى تظهر فى الشعور "وعلى ضوء ذلك يتضمن الرمز عناصر شعورية وأخرى لا شعورية من جهة أخرى، فالبدائيون لم يفرقون بين الأنا والعالم، ولهذا لم يفهموا العالم، كما يفهمه الإنسان الحديث، بل فهموه باعتباره كائنا مهولا تشيع الحياة فيه.

ذلك عن أصل الأسطور وكيفية نشوءها فى حياة الإنسان، أما عن وظيفتها

فتتلخص حسب رأى يونج فى مسألة زيادة أدراكنا لطبيعة النفس البشرية، عن طريق الرمز الذى تتضمنه الأسطورة.

والرمز الأسطورى فى الأثر الأدبى يعد بمثابة تمثيل حدسى يقوم به الكاتب أو المبدع، وتفسير رمزيات الأسطورة من قبل النقاد أو الباحثين على ضوء هذه المفاهيم يجعل الأسطورة رافدا من روافد استمرارية الثقافة أو الحضارة، فالرمز الأسطورى فى رأى البعض لا يتطور إلا داخل العلاقات البشرية.

وقد أخذ بهذا المفهوم عدد كبير من نقاد الأدب المعاصرين، نذكر من بينهم سوزان لا نجر التى أجرت دراسة هامة عنوانها "منظور جديد للفلسفة "١٩٤٩.

تدور حول مفهوم ووظيفة التعبير الرمزى فى ميدان النقد الأدبى خاصة والعلوم الإنسانية عامة.

وأجرى بعدها عدد من النقاد الأمريكان دراسات تتصل اتصالا مباشرا بمسألة العلاقة بين الأدب والأسطورة، واستطاعوا أن يعتمدوا فى دراساتهم على النقد الأدبى من جهة ونتائج العلوم الإنسانية من جهة أخرى. ويعتبر ونرسوب فراى "من أبرز هؤلاء النقاد الذين ركزوا اهتمامهم على مسألة الرموز البدائية، ودورها فى بناءعالم لقصيدة. وكيف يتم استجابة الشاعر للرمز وكيف يستخدمه فى بناء القصيدة.

ويذهب علماء الانثروبولوجيا إلى القول بأن مجال الأساطير يعد بحق مجالا يدخل فى صميم اهتمامهم، ومن أبرز هؤلاء العالم الاجتماعى الشهير كلود ليفى – شتراوس الذى حاول دراسة الأساطير فى ظل مفاهيم انثروبولوجية بنيوية، تعتمد على مفهوم البنية الاجتماعية كما تعتمد على فكرة "النماذج" التى يتم تكوينها انطلاقا من مجال النماذج اللغوية، لهذا نرى أنه لا يحاول فهم الأساطير إلا باعتبارها لغة رمزية تمثل نظاما معينا من العلاقات الداخلية.

انطلاقا من هذا الفهم يرى بأن الأسطورة تعد صورة من صور الفكر المنطقى

على المستوى المحسوس. وأن مضمون الأسطورة لا يمثل الجانب الهام، فالجانب الهام على رأيه يتمثل فى العلاقات المنطقية المضمرة فى ثناياها، أو بالأحرى يتمثل فى "بنيتها الخاصة". فالأسطورة فى نظره تعد مقالا من المقالات يلزم لفهمها فهم غيرها من الأساطير نظرا لأنه يراها (أى الأسطورة) أشبه بصورة محسوسة قابلة للمقارنة والتحديد.

هذه الأساطير تبدو فى دلالاتها، العامة التى تحملها فى داخل بنياتها. فهذه الدلالة العامة تعكس العالم والعقل البشرى الذى هو نفسه جزء من هذا العالم.

والرمز فى الأسطورة – على رأى شتراوس – هو الذى يؤسس وجودها عامة ونسيجها خاصة، فالأسطورة بنية رمزية تشبه بنية اللغة. وهذا يعنى أن الصور اللغوية المختلفة هى التى تدعم كيانها العام ولهذا نجد أن الوظيفة الرمزية تمثل جوهر الدراسة الأسطورية. ورمزية الأسطورة لا يمكن أن تمثل بأى حال من الحالات ظاهرة لغوية وإنما تمثل ظاهرة عامة مشتركة بين العديد من الثقافات أو الحضارات، لأننا لو نظرنا للعناصر الأساسية المكونة للأسطورة لوجدنا أنفسنا بإزاء ظاهرة تعتمد على مستوى الصورة الحسية.

ورمزية الأسطورة هنا لا تعنى رمزية اللغة بمعناها الساذج البسيط فعلى الناقد أو الباحث أن يمتد إلى ما وراء الرمزية المضمرة فى اللغة من أجل الوصول إلى رمزية أخرى من نوع خاص ألا وهى الرمزية المنبثقة من اللا شعور الجمعى لانها تتجلى فيما ينساه الأشخاص أكثر مما يتجلى فيما يقولونه أو ينطقون به.

وينبغى أن نميز فى هذا الصدد بين رمزية اللغة ورمزية الأسطورة، فالأولى ذات طابع خاص يكتسبها الأشخاص من خلال ارتباطهم بمحيط ثقافى معين، بينما رمزية الأسطورة رمزية كلية وشمولية.

والحق أننا إذا دققنا النظر فى نظرية ليفى شترواس القائلة بأن الأسطورة بنية شبيهة ببنية اللغة لوجدنا أنها قد واجهت العديد من الانتقادات نظرا لأن تطبيق

النموذج اللغوى فى مجال الأسطورة يغفل جانب المضمون ويغالى فى الاهتمام بالجانب الحسى أو التصورى للاسطورة.

هذا عن الاتجاه الاسطورى فى النقد الغربى، أما عن الاتجاه الأسطورى فى النقد العربى فمن الملاحظ أننا نجد العديد من البحوث المتواضعة التى قام بها عدد من النقاد والباحثين فى السنوات الأخيرةنذكر من بينها البحوث التى اجراها أحمد كمال زكى عن التفسير الاسطورى للشعر. ومعظم هذه البحوث تدور أساسا حول تفسير الشعر (قديمة وحديثة) تفسيرا أسطوريا وتدعو إلى الاهتمام بدراسة هذا المجال المهمل الذى لم يهتم أحد بتطويره وهو حين يدعونا إلى دراسة الشعر على ضوء الرموز التى تكمن فى الأساطير لا يريد أن يقدم لنا تفسيرا جديدا للأسطورة بقدر ما يرد الكشف لنا عن أهمية دراسة الأسطورة باعتبارها نمطا من أنماط التعبير المرتبط بالأصول الأدبية القديمة أو "بالحالة الوجودية الأولى".

والواقع أن أحمد زكى حين يدعو إلى الاهتمام بتفسير الشعر تفسيرا أسطوريا فأنه يرى أن الشاعر يملك القدرة على تشكيل صوره الشعرية فى عناصر التصور القديم للوجود الأول، ولا غرو فقد أظهر لنا أحمد زكى على أن ثمة شعراء فى الجاهلية سيطرت عليهم القوة الميتافيزيقية التى تصوغ قصائدهم أو تتحكم فى صياغتها بمعنى ما من المعانى ومن هنا فإن الأسطورة عنده لم تكن بمثابة الأسطورة بمعناها "العقيدى" أو بمعناها "الملحمى"، وإنما كانت عبارة عن ضرب من المجاز أو التصوير الأدبى الشائع فى الأعمال الإبداعية وهذا هو السبب فى أن أحمد زكى لا يعتبر الأسطورة أدبا أو فنا نظرا لأن دورها يتفتت فى الحكايات الخرافية أو فى الملاحم الشعبية وأن كان جانبها "الطقسى" يظل فى ضمير الجماعة حيا أمدا طويلا. من ذلك المنظور نفهم أن أحمد زكى يدفع بمفهوم الأسطورة نحو ميدان الدراسة النقدية لا ميدان الدراسة الأنثروبولوجية ومن هنا فإن دعوة أحمد زكى إلى تفسير الشعر القديم تفسيرا أسطوريا تعد حركة اكتشاف أو إعادة اكتشاف نظرا لأن "الأسطورة" اليوم أصبحت جزءا لا يتجزأ من تلك الاهتمامات النقدية

والانثروبولوجية التى توجد فى المجتمع الأوروبى المعاصر. وإذا كان أحمد زكى يريد أن يكشف لنا فى الأسطورة عن حقيقة ارتباطها بالأصول الأولى للغة والأصول الأدبية القديمة فذلك لإنه قد فهم أن هذه الحقيقة لا تتمثل فى أية علاقة مزعومة مع الواقع. بل تتمثل فى وظيفة الأدب نفسه. فهذا الأخير يملك القدرة على إعطاءنا تفسيرا فنيا للكون بصورة عامة.

فالاهتمام بوظيفة الأدب هو وحده الذى يسمح لنا بإقامة دراسة تفسيرية أسطورية للشعر (قديمة وحديثة). وعن هذا الطريق يتم رفض فكرة الخلط بين الفن والأسطورة أو بين لفن والدين. ولعل هذا ما عبر عنه أحمد زكى حيث قال أن: (الأسطورة ليست أدبا ولا يمكن أن تكون) وهو يرفض بذلك فكرة الغاء الحدود بين مجال الأسطورة ومجال الفن والأدب. هذا رغم اعترافه بوجود صلة واضحة بينهما. لهذا فإن من الخطأ أن نتصور عدم وجود هذه الصلة فى الآثار الأدبية العربية. فهو يلاحظ وجود جنوح فى القصيدة الشعرية إلى استيعاد الوجود بمجالاته الحضارية المعقدة.

والملاحظ أن أحمد زكى قد بدأ دراسته بالحديث عن النماذج الشعرية القديمة التى تتضمن طقسا بلاطيا. فلقد جرت العادة بأن يستلهم الشاعر ما نظمته الملاحم من حكايات أسطورية وشيئا من الطقوس الأولى. ويعلق أحمد زكى على النماذج الشعرية القديمة التى أوردها ويبين لنا كيف تتلاقى نفسية الشاعر بالصور التراثية المستمدة من الأسطورة وبصورة الواقع بعد أن حوله إلى بنية لغوية قوامها الرموز.

والواقع أننا لو تأملنا البحث الذى كتبه أحمد زكى تحت عنوان: (التفسير الأسطورى للشعر الحديث) لوجدنا أنه يقرر بوضوح أن (الأسطورة طقس أو كهانة، كما تكون خرافة قصصية تجمع لغتها التصورية رؤية شعرية) ويضرب لنا أمثلة من شعر السياب وعلى محمود طه وخليل حاوى، وصلاح عبد الصبور. ويحاول أن يبين لنا الدور الذى يعلبه الرمز الأسطورى فى قصائد هؤلاء الشعراء.

وهنا قد يقول قائل: أنه ليس من جديد فى كل ما يقوله أحمد زكى لأن إبراهيم عبد الرحمن قد أكد هذه الحقيقة خصوصا فى دراسته عن "التفسير الأسطورى للشعر الجاهلى "وأنه قد فطن إلى الدلالة الرمزية للأسطورة ودورها فى بناء القصيدة.

ولكن الجديد لدى أحمد زكى أنما هو التشديد على ضرورة تفسير الشعر العربى تفسيرا أسطوريا، منطلقا من حقيقة هامة مؤداها: أن البعد الرمزى الأسطورى للقصيدة هو الدعامة الحقيقية لمجال النقد الأسطورى للأدب. وهو لا يقتصر عند ذلك القول. بل يحاول أيضا أن يشرح لنا بنية الرمز الأسطورى على نحو ما تتجلى فى تصميم القصيدة الشعرية مستعينا فى ذلك بأسس النقد البنيوى عند رولان بارت وبعض مفاهيم ليفى شتراوس. وهنا يقرر أحمد زكى أنه لابد لنا من تفسير العلاقة بين القصيدة والرمز الأسطورى، على أنها صلة لا تخلو من انفصال.

والحق أننا لو دققنا النظر فى رأى أحمد زكى حول الرمز الأسطورى وعلاقته ببناء القصيدة لوجدنا أن وجهة النظر هذه وأن كانت تنشد عدم الخلط بين الأدب والأسطورة، إلا أنها لم تحقق ذلك على الرغم مما ذهبت إليه فى بداية الدراسة. ولما كانت العبرة بالأفعال لا بالأقوال. فهو لم يحاول فى الواقع أن يضع تميزا واضحا بين مجال الأدب ومجال الأسطورة.

وقد اهتمت فريال غزول بإجراء دراسة مقارنة على المنهج الأسطورى عند فيكو من جهة والمنهج الأسطورى عند ليفى شتراوس من جهة أخرى. وفى هذا الصدد أجرت مقارنة بين ثلاثة موضوعات أساسية تتمثل فى الأسطورة والشعر وأصل اللغة.

وأجرى سمير سرحان دراسة تحت عنوان: "التفسير الأسطورى فى النقد الأدبى "واهتم بعرض آراء يونج فى الأسطورة. وقارن بينها وبين آراء فرويد، ثم عقد مقارنة أخرى بين "كاسير" و"لا نجر"، ودور كل منهما فى تطور النقد الأسطورى.

وليس ثمة ما يدعو إلى تفصيل القول فى التعرف على الدراسات العربية التى تتناول موضوع النقد الأسطورى فإن هذه اللمحة العابرة تكفى للإستدلال منها على شئ هام الا وهـو: الاهتمام بهـذا الاتجـاه والدعـوة إلـى تطبيـق مناهجـه عـلى الأدب العربى قديمة وحديثة. رغم ما يشوبها من خلط واضح بين المنظور الانثروبولوجى او النفسى، للأسطورة من جهة والمنظور النقدى من جهة أخرى ويمكن للدارس أن يكشف عن مظاهر هذا الخلط بسهولة فى الدراسة التى أجراها سمير سرحان.

obeikandl.com